

## عظمة الصلاة وبحر فوائدها / ج (1)



الحديث عن فوائد الصلاة حديث محبب إلى النفوس، وبحر فوائدها بحر واسع بسعة عظمتها وخصائصها ومكانتها عند الله تعالى وعند رسوله وملائكته وعند عباده الصالحين.

وحسبنا أن نقف على شاطئ بحر فوائدها لعلنا نلتقط شيئاً من هذه الفوائد.

إننا لا ينبغي أن نمل الحديث عن هذه الفوائد ومحاولة استخراجها والتقاطها من بحرها الواسع، ففي الوقوف عليها خير كبير لنا ولمن نتحدث أو نكتب إليهم من إخواننا المسلمين. وإن ديننا الإسلامي العظيم جاء بالخيرات والبشارات، والفوائد والثمرات لأتباعه العابدين العاملين فضلاً من الله ورحمة وإحساناً، والله ذو فضل عظيم. هذا ويمكننا الحديث عن شيء من هذه الفوائد فيما يلي:

1- أنها (أي الصلاة) مدرسة إيمانية يتربى فيها المصلي على معان إيمانية كثيرة ومتعددة، ومن هذه المعاني: العبودية لله تعالى، فالمصلي يرفع شعار هذه العبودية ويعلن عنها بحاله، وفعله، ومقاله في الصلاة، وهو قبل ذلك يترك كل عزيز إلى نفسه من مال، وأهل وولد حين يدخل وقت الصلاة، ولا يهتم بشيء عند ذلك إلا اهتمامه بما يتصل بصلاته من طهور، وهيئة، وسعي إلى المسجد مبكراً.

وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين المسيحين لربهم في المساجد بالغدو والآصال المقيمين لصلاتهم والمؤدين لذكواتهم، فلا تلهيهم عن ذلك تجارة ولا بيع والجال أنهم أهل تجارة يبيعون ويشتررون ويربحون من ذلك، قال تعالى: (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ \* رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ السُّبُوبُ فِيهِمُ الْقُلُوبُ وَالْآبِصَارُ \* لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (النور/ 38-36).

قال العلامة السعدي في تفسيره: "خص هذين الوقتين (أي الغدو والآصال) لشرفهما لتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته، ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادهما عند الصباح والمساء أي: يسبح فيها الله، وأي رجال، وأي رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا،

ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه (لا تُلَاهِيهِمْ تِجَارَةٌ) وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العو فيكون قوله (وَلَا يَدْعُ) من باب عطف الخاص على العام لكثرة الاشتغال بالبيع عن غيره فهؤلاء الرجال وإن اتجروا وباعوا واشتروا فإن ذلك لا محذور فيها لكنه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على (ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه".

ومن المعاني الإيمانية التي يتربى عليها المؤمن في مدرسة الإيمان (الصلاة) إحساسه عملياً بأخوة الإيمان التي تجمعهم بإخوانه المؤمنين رغم اختلاف الأجناس، والألوان، واللغات، والمستويات، فالصلاة يجتمع فيها المؤمنون ككل يوم وليله خمس مرات يؤدونها جماعة في بيوت الله، وهم يقفون صفوفاً قانتين لرب العالمين، وكلهم يعلم عن يقين أن أشكالهم ومستوياتهم المادية، والبدنية لا قيمة لها في هذا المقام، وأنهم سواء أمام الله تعالى، فهو سبحانه لا ينظر إلى أشكالهم، وألوانهم، ولكنه ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم، فإحساس المؤمن بالأخوة الإيمانية في ساحة المساواة في الصلاة من شأنه أن يقوي هذا الإحساس في نفوس المؤمنين جميعاً في كل مكان فيستعملون به على كل عوامل ومظاهر التفرق التي ينسجها ويطورها عدوهم الكافر.

ومن المعاني الإيمانية: تربية المؤمن على التواضع لإخوانه المؤمنين، فهو في الصلاة مع إخوانه المؤمنين واحدٌ منهم لا فرق بينه وبينهم بغض النظر عن مكانته خارج المسجد.

ولا شك أن التواضع من القيم الإيمانية التي ينتج عنها التألف والتقارب والمحبة والرحمة بين المؤمنين، فيعيشون في وئام وانسجام فينشأ عن ذلك القوة والعزة والفاعلية في الحياة: في مجالاتها المتعددة.

والعجيب أن القرآن الكريم يبين أن التواضع للمؤمنين والرحمة بهم ينشأ عنها الشدة على الكافرين كما يقرب بين هذه الرحمة وبين إقامة الصلاة، وبالمقابل فإن ما وجد إنسان متكبر على المؤمنين شديد عليهم إلا وهو متواضع للكافرين رقيق معهم رحيم بهم وتلك هي حقيقة من حقائق القرآن الخالدة التي لا تتبدل وإن تبدل الناس في أفعالهم وقيمهم.

قال الله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفْرَانِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) (الفتح/ 29)، وتقديم وصف الشدة على الكفار قبل وصف الرحمة في هؤلاء المؤمنين الذين هم سيدنا محمد رسول الله (ص) وصحابته الكرام (رض) أمر له دلالاته وأبعاده وإيماءاته المتصلة بالمكونات الإيمانية لشخصيات هؤلاء المؤمنين، وقد جمع الله تعالى لهم في هذه الآية بين جمال قوة الظاهر والباطن، فإن الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين مظهرين أحدهما داخلي: محله القلب، والآخر خارجي: يتمثل في الحركة الظاهرية وما ينشأ عنها، والمظهر الخارجي مترتب على المظهر الداخلي ترتب النتيجة على مقدماتها وكثرة الركوع والسجود دليل على إقامة الصلاة ومحبتها، وإقامتها دليل على قوة إيمان مقيمها، وجماله بالإيمان، ولم يوصفوا بمجرد الركوع والسجود ولكنهم وصفوا بكثرة فعلهما وهم مع ذلك يتحركون في حياتهم بالسعي المفيد والابتغاء المثمر فاعلية في الحياة وإثراءً لمعاني وقيم الإيمان الخيرة الفاضلة لا تكبراً ولا طغياناً ولا ظلماً لأحد بل عبودية لله - عز وجل - وطلباً لمرضاته، وإقامة وتمكيناً لدين الله العظيم ولشرعه القويم.

وآثار العبودية والطاعة لله تعالى بكثرة الركوع والسجود سمة تدل عليها سماهم في وجوههم فهي وجوه نيرة وضيئة مشرقة مستبشرة متواضعة يعلوها الجلال، والجمال، والحياء تغضب الله وفي الله، وهي لا تحابي أحداً في الولاء والحب لله تعالى ولأوليائه، والبراء من أعدائه بالشدة عليهم، فلم ير أعداؤهم منهم إلا الشدة والتصيق، ولم يجد منهم إخوانهم المؤمنون إلا الرحمة، والتواضع، واللين، والحب.

وقد جمعوا في هذه الصفات أيضاً بين جمال المعاملة مع مخالفتهم، وبين جمالها مع خلقه المؤمنين، واستنارت بالصلاة بواطنهم، وطواهرهم جلالاً وجمالاً، فكانوا شامة جميلة في جبين الإنسانية.

2- أنها تذهب بشور النفس، وما أكثرها وأغربها فالظلم، والطغيان، والبطر، والكبر، والحقد، والحسد، والجبن، والبخل، واللؤم، واحتقار الآخر، هذه وسواها مما لا يقع تحت حصر هي من شور النفس البشرية، وأمراضها، ولو تركزت هذه الشور والأمراض بغير علاج لأهلكت أصحابها، والحرث والنسل معهم.

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يتركهم لشور أنفسهم وأمراضها بل أنزل إليهم كتبه وأرسل



حياتهم، في مقابل عدم اكتراثهم بإقامة الصلاة في نفوسهم وأهلبيهم، وهم بذلك لن يزدادوا إلا غمًا وضنكًا، لأن خالق الخلق ومقدر الرزق جلّ في علاه بين في كتابه الكريم أن من أثر مرضاته وطاعته وإقامة أمره، يسر له أمر الرزق وسهله، ومن خالف فسجد التعسير والتشديد في حياته. قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (طه/ 124).

ثانيًا: أن نصوص القرآن الكريم تقرب بين إقامة الصلاة وبين إيتاء الزكاة والإنفاق من الرزق. قال تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يَدْعُونَ بِرِئَاسَاتِهِمْ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (البقرة/ 3-2)، وقال سبحانه: (إِنَّهَا لَمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (الأنفال/ 3-2).

إنّ مجيء اقتران صفتي إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، أو الإنفاق من الرزق في القرآن الكريم في وصف المؤمنين، لهو أمر له دلالاته وأبعاده القريبة والبعيدة المتصلة بأثر إقامة الصلاة في حياة صاحبها تيسيرًا في رزقه وبركة فيه، وهو ما يمكننا من القول بأن من أقام الصلاة فهو مبشر من الله تعالى بتوسيع رزقه حتى يكون رزقًا تتوجب فيه الصدقة المفروضة (الزكاة) أو يكون صاحبه مدعوًا للصدقة المتطوع بها، وذلك أمر يدعونا إلى النظر والتأمل في الآثار الإيمانية التي تُحدثها إقامتنا للصلاة، في مجال حياتنا وخاصة ما اتصل بأمر الرزق، ودراسة هذه الآثار ونتائجها دراسة مستوعبة في مجالها النظري والعلمي، وربط ذلك بحركة النفس البشرية وهي طائفة خلقها.

هذا ويمكننا أن نصيف إلى ما سبق فيما يتصل بمجىء صفتي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، أو الإنفاق من الرزق معًا في القرآن الكريم من بين صفات المؤمنين شيئًا آخر هو ما يدل عليه هذا الاقتران وما يشعر به من المسؤولية المناطة بالمؤمنين، وضرورة نجاحهم في ميداني الإحسان فيما بينهم وبين الله تعالى وذلك بصدق الإخلاص في العبادة، والإحسان فيما بينهم وبين خلق الله سبحانه.

قال العلامة السعدي - رحمه الله - في تفسيره: "وكثيرًا ما يجمع الله تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأنّ الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه فلا إخلاص ولا إحسان". فلا يود مؤمن إلا وهو أخذ بزمام النجاح في الميدانين. ومن أخفق في ميدان إقامة الصلاة، فهو حتمًا سيفتح في ميدان الإنفاق المفروض أو المتطوع به، ولا عبرة ببعض الظواهر المخالفة فأمرها قصير والعبر بالمدائمة والاستمرار.

وجاءت آيات قرآنية كريمة تبين مصير أناس سقطوا في ميدان إقامة الصلاة وترتب على ذلك سقوطهم في ميدان الإنفاق، فكان مصيرهم بنس المصير عيادًا بالله تعالى. قال سبحانه: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ \* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ \* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ \* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ \* وَلَا يَحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ) (الحاقة/ 34-30)، وإقام الصلاة من الإيمان بالله العظيم.

وقال عزّ من قائل: (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ \* قَالَُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ \* وَلَمْ نَكُ نَطُوعِ الْمُسْكِينِ) (المذثر/ 44-42). وقال عزّ وجلّ: (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ \* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ \* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) (الماعون/ 7-4)، فقد بينت هذه الآيات الكريمة أن هؤلاء استحقوا ما استحقوا لأنهم جمعوا في نفوسهم أسباب العذاب والشقاء فلا طاعة منهم، ولا إحسان لخلقهم، فجفت نفوسهم من محبة الله تعالى ومحبة خلقه، والعطف عليهم، فخلت بالكلية من الرحمة، فكان جزاؤها عذاب النار التي لا رحمة فيها، وهو جزاء مناسب لجنس عملهم، ولا يظلم ربك أحدًا.

إنّ الرحمة الإلهية التي تنسكب في قلوب المؤمنين مقيمي الصلاة تنشأ عنها رحمتهم بخلق الله، فقلوبهم قلوب رحيمة، ونفوسهم نفوس رقيقة، وإنّ الكرم الإلهي الذي يفاض على عباده المؤمنين مقيمي الصلاة ينشأ عنه كرم نفوسهم بمحبة خلقه، وكرم أيديهم بالبذل والعطاء. ▶

